وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية

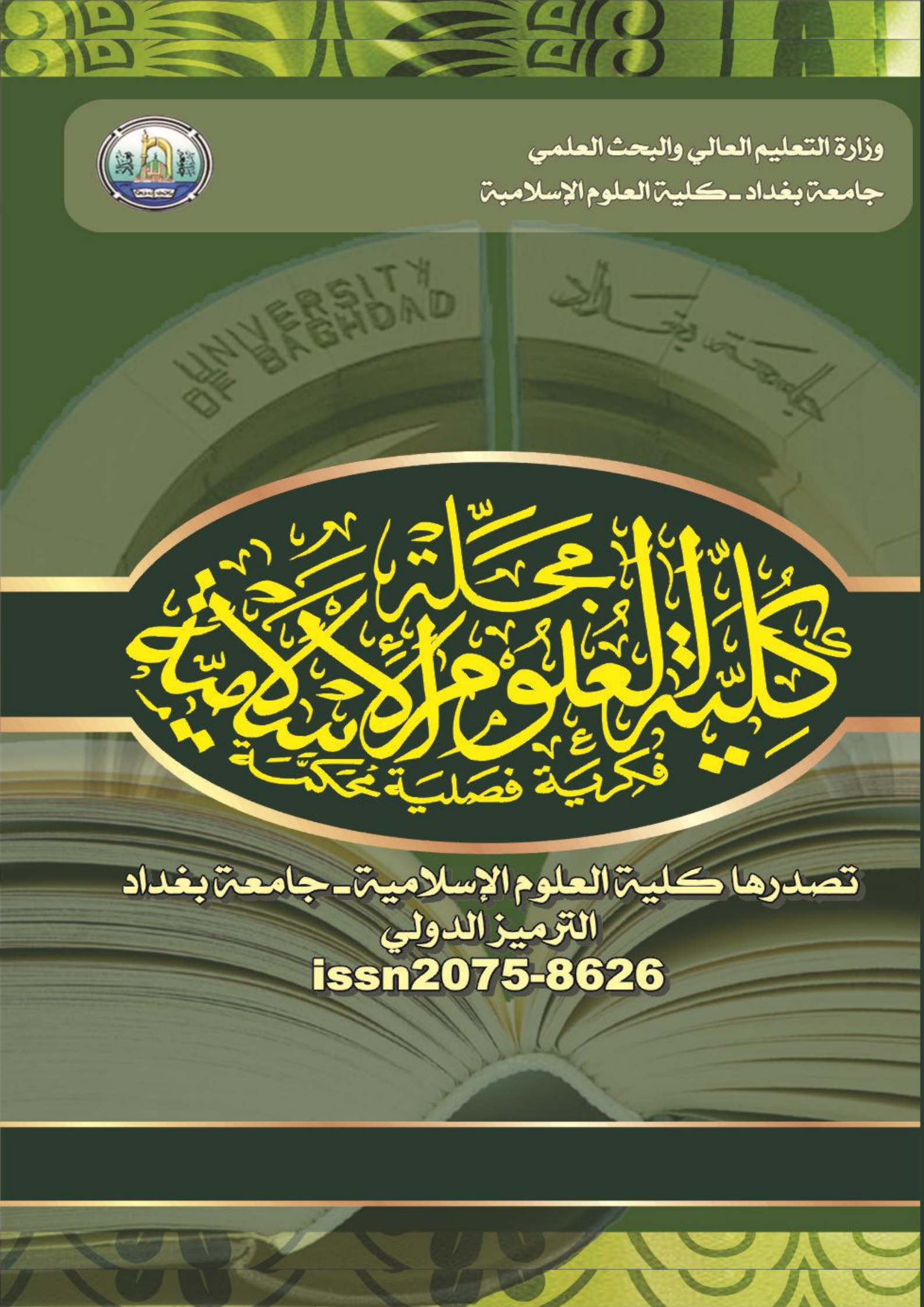

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية فصلية محكمة

تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

وزارة التعليم العالي والبحث
العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية – فصلية - محكمة
تصدرها
كلية العلوم الإسلامية
جامعة بغداد

العدد: ٢

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

مجلة كلية العلوم الاسلامية

العدد (٢) لعام ١٩٩٧

اسم البحث	اسم الباحث	رقم الصفحة
وسائل اصلاح الفرد والمجتمع	د. محمد رمضان عبد الله	١
تفسير الصحابة منهجا وحجية	د. محمد صالح عطية	١٩
كيف استعمالاتها واعرابها	د. خليل ابراهيم السامرائي	٣٧
انقضاء عقد الكفالة	أ.م.د. عبد الحميد شهاب	٦٥
اصول الفقه تدوينه ومدوناته	عبد الله محمد صالح	١٠٣
الحرفة واثرها على الكفاءة في عقود الزواج الاسلامية.	محمد فالح بني صالح	١٣٥
لو المصدرية في القران الكريم دراسة نحوية .	د. عبد الرحمن مطلك الجبوري	١٧٧
التخصيص بالاستثناء بعد جمل متعاطفة واثره في السريعة.	احمد محمد الباليساني	٢٠٧
الدخيل في تفسير جزئي تبارك وعم من تفسير البغوي.	د. فايز صالح الخطيب	٢٢٧
التعبير عن الارادة عند الاخرس وتطبيقاتها في الفقه الاسلامي والقانون المدني.	د. اسماعيل ابراهيم ابو شريفة	٢٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وَسَائل إصلاحُ الفَردُ والمُجتَمَع

الدكتور مُحمَّد رَمضَان عبدالله

الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الميامين وأصحابه أجمعين .

أما بعد:

فقد كان للمصلحين الاجتماعيين على اختلاف نزعاتهم -غاية واحدة- هي النهوض بالمجتمع البشري، والوصول به إلى أقصى درجات الكمال الإنساني، غير أنهم سلكوا في سيرهم طريقتين مختلفتين، فانقسموا الى فريقين: فريق يسعى للإصلاح من ناحية الروح، وفريق يسعى إليه من ناحية المادة. فالروحيون يرون أن الروح هو الجزء الأهم في الإنسان، فهو الأجدر بالعناية والرعاية، لذلك كان الدين عندهم هو الوسيلة إلى إصلاح البشرية، ثقة منهم بأن الإنسان لا يطمئن في الحياة، ولا يتغلب على صعابها إلاّ إذا امتلأ قلبه ايمانا، وعمرت نفسه بالتدين الذي يرافقه في خلوته، فيزجره ويعصمه من الشر والإجرام من غير قانون يخشاه، ويُعَز به في حرمانه، فيجعله راضياً، وبذلك تتحقق له السعادة التي تعجزعن تحصيلها الأموال الطائلة، والقوى الهائلة، بل العلوم والمعارف.

يرى الروحيون أن الإصلاح الاجتماعي إنما يكون عن طريق تهذيب النفوس، وتطهير القلوب من الأحقاد والأضغان، ومن الأنانية والعدوان، وبغرس المحبة والميل إلى الخير في النفوس، وتوجيهها إلى الله تعالى، الذي يحفظ المؤمن من كل ما يخشى، ويحقق له كل ما يطلب. هذا ما قام به الروحيون في خدمة البشرية، ولهم فضلهم، والإنسانية

مدينة لهم بما صنعوا، فقد عملوا لتهذيب النفوس وتطهير القلوب وإنارة العقول، وايقاظ الضمير الذي يقود إلى الخير ويصد عن الشر.غير أن فريقا من الروحيين قد غلا في دعوته، واندفع في طريقه حتى جاوز الغاية، فحقّر من شأن المادة، ودعا الناس إلى الانصراف عنها، والعزوف عن الدنيا، والزهد فيها، وصرف الوقت كله ليله ونهاره في تغذية روحه بالعبادة، فانصرف الناس بذلك عن العمل في الدنيا.

ومنهم من عبث بالعقول، فعاقها عن التفكير، ودعا إلى التقليد المطلق وقاد الأفكار إلى اعتقاد الخرافات والضلال، وهؤلاء: قد أساءوا إلى البشرية بما الحقوا بها من بالغ الضرر، والى الدين بما أحدثوا فيه من تحريف وتشويه.

وقد كان هذا النمط من التفكير الديني سائداً في المجتمعات الغربية لدى رجال الدين في عصر ما قبل النهضة، فكان ذلك سبباً في ثورة بعض المفكرين على الدين ومناهضة الروحيين، وانتشار النزعة الماديّة وإعلان أهلها العصيان والتمرد على الأديان، فاتهموا الشرائع السماوية بأنها غل في أعناق البشرية، وقد يعوقهم عن السير إلى الأمام.وصفوا الدين بأنه مخدر، ورموا أهله بالجمود، والاستسلام إلى الخيال والأوهام، واتهموا زعماءه وقادته بأنهم يدعون الناس إلى الكسل والخمول والتواكل، يقتلون فيهم روح العمل، ويغرسون فيهم الأثرة وحب الذات.

ومن ثم تنكر الماديّون للأديان، وطاردوا رجالها وأغلقوا المعابد، وفصلوا الدين عن الدولة، وأغمضوا أعينهم عن الروحيات هؤلاء هم الماديّون أصحاب المذهب الثاني: الذي يعالج المجتمع عن طريق المادة فقط، فاعتمدوا في معالجة المشاكل الاجتماعية على وسائل مادية بحتة، فعملوا على توفير الثروة في البلاد، وزيادة الغُلة، والإنتاج الزراعي والصناعي وتنظيم توزيعها، وسن القوانين التي تؤدى إلى ازدهار العمران، وإيجاد نوع من العدالة يضمن للعامل والصانع عيشة طيبة، فأسلموا للعلم قيادهم، وجعلوه أداة استنبطوا بها مكنونات المادة من أسرار وقوى، استخدموها لخير الإنسانية هدفهم إسعاد البشرية عن طريق **(الغنى والمعرفة والقوة)**.

فظن هؤلاء الماديون أنهم بخدمة الجانب المادي للإنسان يحققون للمجتمع مثله الأعلى: السعادة المنشودة، وما دروا أن العلم والمال وحدهما لا يغنيان الإنسان ولا يحققان له شيئاً من هناءة الروح، واطمئنان النفس، بل كثيراً ما يسببان للإنسان الشقاء بما يجلبان

عليه من مهدكات التفرق المفضي إلى الحروب المدمرة التي تقضي عليه وعلى علمه وماله.

وقد اتضح لنا مما بيناه: أن كل واحد من المذهبين لا يستقل على انفراد بإصلاح المجتمع، لهذا لا يمكننا أن نطرح جانباً: النزعة المادية المتطرفة، كما نطرح النزعة الروحية المتطرفة.

ونرى إن الإسلام يقف بين هؤلاء وأولئك موقفاً وسطاً فلا يميل مع الغلاة من الفريقين، بل الخير كل الخير في الأخذ بالمادة إلى قدر مقدور، والاستمساك بعرى الدين في حدود تعاليمه الصحيحة.

نستطيع إذن أن توافق الماديين إلى حد ما : نقرهم على ضرورة استخدام العلوم والانتفاع بثمارها من المخترعات التي تقوم في المصانع مقام اليد العاملة، فتزيد الإنتاج الصناعي والزراعي، وتحمل عن الإنسان ما يتكبد من عناء، ونوافقهم أيضاً : على إقامة المؤسسات اللازمة لاصلاح المجتمع من المدارس والمصانع، والمساكن الصحيّة، وإنشاء القرى على نظام جديد، وغير ذلك من مرافق الحياة.

نستطيع أن نوافقهم على هذا كله، ولكننا ننكر عليهم شططهم إلى حد الخروج عن تقاليد الدين.

أما استخدام العلوم والانتفاع بثمارها، فهو أمر نقره أيضاً إذ لا يصادم العلم الصحيح الدين أبداً، بل الدين يحث عليه ويرفع من شأنه، ولا يقف حجر عثرة في سبيله.

والاستمساك بعرى الدين -في حدود تعاليمه السامية- يحملنا على النهوض بالإصلاحات الاجتماعية، والقيام بالمشروعات العمرانية. لان الدين الإسلامي يعمل على إصلاح شؤون الناس في دينهم ودنياهم على السواء، قال الله سبحانه وتعالى ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[1] وفي الآثار (اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبداً، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غداً)[2].

---

(١) سورة القصص : الآية :٧٧.

(٢) انظر: الجامع الصغير للسيوطي : قال : اخرجه البيهقي في السنن- ضعيف. (١:١٨١) رقم (١٣٠١) ط دار الفكر- بيروت.

يحث الإسلام على العمل، ويحارب البطالة والكسل، ويرغب في مزاولة الصناعة والتجارة. روى المقداد ﷺ : أن النبي ﷺ قال (ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)(٣).

قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾(٤).وقال ﷺ (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خيرُ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)(٥).

وفي الآثار (التجار يحشرون فجاراً إلاّ مَنْ اتقى الله وبرّ وصدق)(٦) و(التاجر الصدوق تحت ظل العرش)(٧).

وقال تعالى﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ . . .﴾ (٨).

وقال تعالى﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾(٩). ليس الدين الإسلامي ديناً روحياً فحسب، بل هو دين جدٍ وعمل كذلك يدل لهذا أن الشريعة الإسلامية نظمت للناس شؤون حياتهم الاجتماعية بما سنت لهم من الأحكام والقوانين الاقتصادية والزراعية والتجارية، وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها.

فهناك قوانين لتنظيم البيع والشراء، والاجازة، والسلم، والقرض والقراض، والمزارعة، والشركة، والزواج، والطلاق، والعدة، والنفقات وغيرها.

لقد رسم الإسلام سياسة المجتمع البشري على احكم خطة وأحسن تقويم، جاءت الشريعة الإسلامية بمبادئ وأحكام ترمي إلى تدعيم بناء المجتمع ورقابته والىعلاج ما

---

(٣) مسند احمد: ٤: ١٣١-١٣٢، صحيح البخاري:٣: ٧١ باب كسب الرجل وعمله بيده السنن الكبرى للبيهقي: ٦: ١٢٧.

(٤) سورة الانبياء: الآية:٨٠.

(٥) مسند احمد: ٢: ٢٥٧،٣٩٥،٤٩٦. صحيح البخاري: (٢: ١٤٧) و (٣: ٧١) سنن النسائي (٥: ٩٣) و سنن ابن ماجه (١: ٥٨٨).

(٦) سنن الدارمي : (٢: ٢٤٧).

(٧) المستدرك للحاكم : (٢ :٦) وانظر الترغيب والترهيب: ٢: ٥٨٥.

(٨) سورة الجمعة: آية:١٠.

(٩) سورة الملك : آية : ١٥.

ينتابه من أمراض وعلل، مبادئ لو استمسك بها الناس لعاشوا في أمن ودعة، ولظلوا في رغد من العيش، وبسطة من الهناءة والنعيم، والغبطة والسعادة.

أمر الدين الإسلامي بعموم الفضائل، ونهى عن جميع الرذائل، ودعا إلى التآخي والتواصل، وحذر من التدابر والتقاطع، وقرّر حفظ : (النفس، والدين، والمال، والعقل، والنسب) أمور خمسة قررّ الدين الإسلامي حفظها والذود عنها، إبقاء على كيان المجتمع، لان في بقائها بقاءه ، وفي إهمالها انحلاله وفناءه. وقد سمى الأُصوليون هذه الأشياء الخمسة (بالكليات الخمس) لان كل الأديان السماوية اتفقت على أن تحافظ عليها، وفي سبيل المحافظة على هذه الأمور شرع الإسلام : القصاص لحفظ النفس، والجهاد لحفظ الدين، والحدود الأخرى المختلفة لحفظ المال والعقل والنسب.

نَظَرةٌ عَجْلى عَلَى المُجتَمَعاتِ قَبلَ مجيء الإسلام

لابد لنا قبل أن نخوض في تفاصيل الأحكام الإسلامية التي تتسم برعايتها التامة لشؤون الفرد والمجتمع، والتي ألفت بين القوى الإنسانية ونظمت العلاقات على أسس قويمة من العدل والحق والمودة: أقول قبل أن نخوض في هذه التفاصيل ينبغي أن نلقي نظرة عجلى على ما كانت عليه المجتمعات الإنسانية قبل مجيء الإسلام، ثم كيف تغيرت هذه المجتمعات بعد أن أظلهم الإسلام بظلاله الوارفة، وشملهم بنوره الهادي الذي جعل حياتهم المظلمة نوراً وسعادة، وبدّل تفرقهم إلى الألفة والمودة، والاخوة الكاملة.

لقد كان العالم قبل مجيء الإسلام في تفسخ أخلاقي، وانحلال عقائدي، وفوضى اجتماعية آخذة بخناق الناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، فنظرة عجلى على خارطة العالم في ذلك الوقت ترينا صدق هذا الذي نذهب إليه.

ففي (روما) كان الناس ما بين سادة وعبيد، والحكم للأقوى والذل للضعيف، وكانت المرأة بمثابة جارية للفراش من حق زوجها أن يقتلها دون حساب ولا عقاب، ولم يكن الحال عند (الفرس) بأحسن من الحال عند الرومان، إن لم يكن أسوأ وأضل سبيلا، فقد كانت النار تعبد من دون الله، والناس عند كسرى كلهم عبيد، أو كالعبيد.

لقد كانت الدعوات الدينية المتحلّة في (فارس) قد مزقت كيان مجتمعها، وقد كان بعض هذه الدعوات يدعو إلى التشاؤم المطلق فهذا (ماني) يدعو إلى فناء بني الإنسان

ليتخلص العالم من شرورهم. فقد دعا إلى تحريم الزواج ليتسارع العالم إلى الفناء، ويقرر أنه لا خلاص لعنصر الخير في هذا الكون من الشر ألاّ إذا فني الإنسان، وكأنه يرى أن الإنسان لعنة في هذا الوجود، لأنه لم يجد في مجتمعه إلاّ شروراً، وآثاماً، وفتناً، وانقساماً.

وجاء بعده (**مزدك**) فوجد أن سبب التحاسد والمباغضة بين الناس، وحقد بعضهم لبعض يعود إلى أن الأغنياء منهم يمتلكون الأموال، ويتزوجون بأجمل النساء، فرأى إن إزالة هذا السبب تذهب بأحقاد الناس فنادى بإباحة (الأموال والنساء) بين الناس فانهار المجتمع الفارسي بهذا المذهب الفوضوي الذي لم تراع فيه حقوق وواجبات، وقد خلعت فيه كل القيود الاجتماعية، والخلقية ، وانطلقت فيه الشهوات والنزوات، وتفاقم الشر، واشتدت البغضاء والعداوة في المجتمع.

أما في (**الجزيرة العربية**) فكما نعلم، كان الفساد في العقيدة قد أدى إلى فساد أخلاق المجتمع، فصاروا يعبدون الحجارة التي ينحتونها بأيديهم، ويئدون البنات خوف الفقر أو العار، ويحرمونها الميراث إن هي نجت من الدفن حيّة، إلى جانب الظلم الذي كان فاشيا، والتفرق القبلي الذي كان مستشرياً.

هذه نظرات عاجلة ألقيناها على هذه المجتمعات، وكان لابد منها قبل أن نخوض في بيان المزايا والأحكام التي جاء بها الإسلام فبدل حياة الناس من الشقاء إلى السعادة، ومن الظلمات إلى النور، فان المجتمع الإسلامي كصرح متين البنيان لا يمكن أن يراه الرائي على وجهه الصحيح، وأن يعرف مقدار ارتفاعه، واتجاهه إلى السماء إلاّ برجعة إلى الوراء، فأن هذه الرجعة تكشف عما جاء فيه، وعما ارتفع به، وتظهر لنا كيف تبدّل هذا العالم الذي كان يعيش في ظلام دامس، وجهل مطبق، ونظم عتيقة فاسدة، وعقائد محرفّة مضللّة، إلى حياة كلها نور وضياء، فبدل جهل الناس ثقافة وعلماً وعرفاناً، ومحا هذه النظم البالية من كل نواحي الحياة، وجاء بأصول اجتماعية إنسانية تربط الإنسان بالمجتمع والحياة، وتسير به إلى حضارة مهذبة رائعة، وتجمع بين المادة والروح، وبين الدين والدنيا، وتتمشى مع الفطرة السليمة والعقول المستقيمة التي لم تضللها تقاليد موروثة، أو عادات شائعة، أو أوهام زائفة.

وقد وجه الإسلام الناس جميعاً إلى عبادة اله واحد لا شريك له، وسن لهم القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات والكفيلة برقي الفرد والجماعة على نحو يرضاه العقل، ويطمئن إليه القلب والوجدان. فلذلك يجدر بنا أن نذكر هنا بعض الأمثلة والنماذج التي تدل

على صدق ما نقول والتي أعلنها الإسلام صريحة واضحة لا مرية فيها ولا غموض. واليك بعض هذه النماذج.

المعاملات المالية

اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على بيان أُسس التعامل المالي بين آحاد المجتمع كله تنظيما يقوم على أسس عادلة من شأنها أن تمكن كل امرئ من أن يعمل، ومن أن يكون له نتائج عمله قلّت أو كثرت، ونهى القرآن والسنة عن أن يأخذ إنسان مال الآخر بغير رضاه، وأن يأكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل الرشوة، وما وجدت الرشوة في مجتمع إلاّ أفسدت موازينه، وإذا فسدت الموازين اضطرب أمره. ولذا قال الله ﷻ ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وانتم تعلمون﴾(١٠).

ومن الأكل بالباطل : الربا، فان النقد لا يلد النقد، فكيف يأخذ مائة ويرد مائة وعشرة، وان الربا يفسد المجتمعات، ويجعل المستدين ينظر الى الدائن على انه آكل له، فيكون الحقد، وتكون البغضاء وتحل الروح المادية بدل المودة الواصلة الرابطة بين الآحاد، وهو آفة من الآفات الاجتماعية، تترتب عليه الأزمات الاقتصادية لذلك حرّمته الأديان السماوية كلها.

الأهداف الاجتماعية في الشريعة الإسلامية

تهذيب الأفراد

للشريعة الإسلامية أهداف اجتماعية أساسية لابد أن تتحقق في كل مجتمع، فتتجه الشريعة في أحكامها إلى تحقيق هذه الأهداف، وهي المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، فقد جاءت لتكوين مجتمع فاضل يضم الأسرة الإنسانية كلها، فالعبادات : شرعت لتهذيب النفوس وتربية روح المساواة، وروح الاجتماع الذي لا اعتداء فيه، وإذا كانت العبادة لا تحقق تلك الأهداف فهي ليست عبادة، ولا يقبلها الله تعالى، وهي تجلب الذم لصاحبها.

---

(١٠) سورة البقرة : آية :١٨٨.

ولنضرب لذلك مثلاً بالصلاة، وهي أوضح العبادات الشخصية فقد وصفها القرآن الكريم بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فقال ﷻ ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (١١).

فإذا كان العبد يصلي ويأكل مال الغير فهي ليست صلاة مقبولة وهو محاسب عليها.

والزكاة تعاون اجتماعي يجعل للغير حقاً معلوماً في أموال الغني فهي تكليف اجتماعي خالص، ومصرِفُها اجتماعي خالص، ونظامُها في الجمع والتوزيع لا يذل الفقير ولا يجعل الغني يشعر بعزته فوقه ولذا قال الفقهاء بالاجماع : إن ولي الأمر هو الذي يجمعها، وهو الذي يوزعها على مصارفها، وقد قال النبي ﷺ (خذها من أغنيائهم فردّها في فقرائهم)(١٢).

جعل الإسلام كفارات الذنوب، تعاوناً اجتماعياً، فمن افطر في رمضان فعليه عتق رقبته، أو اطعام ستين مسكيناً ومن قال لامرأته، أنت علي كظهر أمي لا يقربها الاّ اعتق رقبته أو صام ستين يوماً أو أطعم ستين مسكيناً، ومن حلف وحنث في يمينه كان عليه عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم.

وهكذا نجد الكفارات تعاونا اجتماعياً، وكأن الذنب الذي يرتكب، أو التقصير في عبادة هو اعتداء اجتماعي، فلا يكفرّ الاعتداء الاجتماعي، تعاون اجتماعي يَسدُّ النقص ويزيل الخلل.

المجاهرة بالمعاصي

لقد حذر الإسلام، في سبيل تطهير المجتمع من المفاسد من المجاهرة بالمعاصي، وأوجب أن تستر الجرائم الحلقية، فلا تكشف أستارها أمام الملأ من الناس، لان إعلانها يفسد الجو الخلقي للمجتمع، ويجعل الشر معلناً، وإعلانه يغري بأتباعه، ويشيع فساده بين الناس فالفاحشة إذا أعلنت اتبعت، لذلك اعتبر الإسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب

---

(١١) سورة العنكبوت : جزء من آلاية :(٤٥).

(١٢) ورد هذا الخبر بهذا اللفظ في (نصب الراية للزيلعي : ٢ : ٣٩٨) وانظر : صحيح البخاري :(٢: ١٥١) ذكره بلفظة مقارب.

جريمتين : جريمة الارتكاب وجريمة الإعلان. قال الله تعالى ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول..﴾[١٣].

قال رسوا الله ﷺ (كُلُّ أُمتي معانى إلاّ المجاهرين وإنَّ من المجانَةِ أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربُّه، ويُصبح يكشف ستر الله عنه)[١٤]، وقال ﷺ (إن من أبعد الناس منازل عند الله يوم القيامة المجاهرين، قيل: ومَن هم يا رسول الله؟ قال: ذلك الذي يعمل العمل بالليل وقد ستره اللّه عليه، فيصبح ويقول: فعلتُ كذا وكذا يكشف ستر الله عنه)[١٥].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أوجب الإسلام في سبيل تطهير المجتمع من الشرور، أن يكون هناك رأي عام فاضل يحث على الخير وينهى عن الشر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فأن الرأي العام له رقابة نفسية تجعل كل شرير ينطوي على نفسه، فلا يظهر وكل خيّر يجد الشجاعة في إعلان خيره.

ولا يفسد الجماعة إلا الرأي العام الذي يتقاعد عن نصرة الفضيلة، ويترك الرذيلة تسير رافعة رأسها.

عن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال (مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خَرقاً ولم

---

(١٣) راجع كتب التفسير : سورة النساء آية (١٤٨-١٤٩) ومنها (في ظلال القرآن)

(١٤) صحيح البخاري :(٨: ٢٤) باب ستر المؤمن على نفسه ، وصحيح مسلم (٨: ٢٢٤) باب النهي عن هتك الانسان ستر نفسه .

(١٥) انظر : اتحاف السادة المتقين شرح احياء علوم الدين (٦: ١٢٧) و(٨: ٥٧٢) وانظر : احياء علوم الدين للغزالي (٤: ٣٣) باب ما نظم به صغائر الذنوب .

نؤذ من فوقنا، فأن تركوكم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وان اخذوا على أيديهم نَجوا ونجَوا جميعاً)[١٦].

ولقد عد القرآن الكريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنوان الأمة الفاضلة. فقال تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[١٧]. وعدّ الإسلام الجماعة كلها آثمة إذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسكتت عن المعاصي ترتكب في المجتمع فقال تعالى ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون﴾[١٨].

الكرامة الإنسانية

عد الإسلام الإنسان اكرم من في هذا الوجود، واختاره للخلافة في الأرض، وسخر له كل شيء من جبالٍ ووهاد وزرع وضرع، بل سخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأعطاه من العلم قدراً يستطيع أن يسخر له كل ما يقرب من لمصلحة نفسه.

وان النصوص الدينية القطعية لتذكر أن الملائكة قالوا لرب العالمين عندما اختار أن يكون آدم وبنوه الخلفاء في هذه الأرض ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك﴾ قال الله لهم ﴿إني اعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم﴾[١٩].

وآدم بما علمه الله، أعلمهم بهذه الأسماء جميعاً، وليس ذلك العلم الاّ الاستعداد الفطري في عقل كل إنسان لمعرفة حقائق الأشياء، والأسرار الكونية التي بها يستطيع أن

---

(١٦) صحيح البخاري :٣ :١٧٣ في باب هل يقرع في القسمة والاستهمام فيه . وانظر : رياض الصالحين للنووي - باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانظر: فتح الباري: ٥: ٣٦٩ كتاب الشهادات: في المشكلات .

(١٧) سورة آل عمران : آية : ١١٠.

(١٨) سورة المائدة : آية ٧١.

(١٩) سورة البقرة :آية:(٣٠-٣١-٣٢).

يسيطر على ما في هذا الوجود بما أعطاه الله تعالى من علم. ولقد صرح القرآن الكريم بهذا التكريم المطلق في قوله تعالى ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (٢٠).

لاحظ الإسلام هذه الكرامة الإنسانية، وان الإنسان يستحقها بمقتضى كونه إنساناً، لا للونه، ولا لجنسه، ولا لدينه، ولا لكونه شريفاً أو ذا حسب أو ذا جاه، بل هي الإنسانية ذاتها.

لذلك كانت تعاليم الإسلام كلها تدور حول هذا القطب الذي يرمي إلى المحافظة على كرامة الإنسان، فلم يفرق بين حر وعبد في هذه الكرامة. وظهر ذلك في أحكام جزئية كثيرة :

منها : أن النبي ﷺ أمر بالاّ ينادي السيدُ عبده بـ (يا عبدي) وألاّ يقول العبد لمالكه (يا سيدي) بل يقول المالك : فتاي وفتاتي وغلامي وان يقول العبد (مولاي) أي : صديقي الذي أواليه وأنصره(٢١).

ومنها : أنه أمر بأن يأكل العبدُ -الفتى الغلام- مما يأكله مالكه ومولاه ويكسوه مما يكسو به نفسه وأولاده. فقد قال ﷺ (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فان كلفتموهم فأعينوهم)(٢٢).

ومن الكرامة الإنسانية : التسوية المطلقة بين بني آدم في التكريم لأنهم جميعاً متساوون، والناس كلّهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى(٢٣).

---

(٢٠) سورة الاسراء: آية ٧.

(٢١) انظر : صحيح البخاري (٣: ١٨٦) وصحيح مسلم (٧: ٤٦-٤٧) .

(٢٢) انظر : على سبيل المثال : صحيح البخاري (١-١٥)

سنن ابي داود :٤: ٣٤٠.

سنن الترمذي :٤: ٣٣٤.

سنن ابن ماجه :٢: ١٢١٦.

(٢٣) انظر :مسند احمد (٤١١:٥). ومجمع الزوائد :٨ : ٨٤. والدر المنثور للسيوطي : ٦: ٩٨-٩٩.

وان الإسلام في سبيل حماية الكرامة الإنسانية منع الإكراه في العقائد، وعمل على إزالة الفتنة في الدين، قال سبحانه ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٢٤] وفي سبيل احترام الكرامة الإنسانية : أباح حرية الفكر، وحرية القول إلاّ ما يكون خادشا للناموس الاجتماعي العام، والعبارات الجارحة للحياء.

العدالة

نقصد بالعدالة هنا : أن القانون يطبق على الجميع بلا فرق و لا تمييز بين غني وفقير، ولا لون ولون، ولا جنس وجنس، ولا دين ودين، بل الجميع أمام القانون سواء، فلا تفاضل بين الناس في التطبيق القانوني وإنما التفاضل في القيام بالفضائل الإنسانية. فأبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ أفضل من أعرابي من أعراب البادية بخلقه ودينه. ولكن أمام القانون يتساوى معه.

ولقد صرّح النبي ﷺ بالمساواة المطلقة أمام الأحكام الشرعية فقال (كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). ولقد شدد النبي ﷺ في تطبيق الأحكام الشرعية ومنع المحاباة في تطبيقها، وانه يروي في هذا: إن امرأة من قريش سرقت عقب فتح مكة، فأهم قريشاً ان محمداً سيقطع يدها، وفي ذلك سُبّة الأبد على قبيلتها، فدفعوا إلى الرسول ﷺ أسامة بن زيد ، وكان حبّه مع انه ابن فتاه الذي أعتقه، فذهب الى النبي ﷺ يستشفع لها فقال له (أتشفع في حد من حدود الله) ثم وقف في الناس خطيبا يقول (ما بال أقوام يشفعون في حد من حدود الله، إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو إن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٢٥].

---

(٢٤) سورة البقرة : آية : ٢٥٦.

(٢٥) صحيح البخاري : ٤ :٢١٣ ، وصحيح مسلم : ٥: ١١٤-١١٥.
سنن النسائي : ٨ :٨٣. ، وسنن ابي داود : ٤ :١٣٢-١٣٣.

ولقد كان الصحابة من بعده يطبقون ذلك النوع من العدالة اكمل تطبيق، حتى إن عُمَر يصيح في وسط الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يقول (القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف قويٌ حتى آخذ الحق له).

ولقد نفذ ذلك القول تنفيذاً دقيقاً، وكان يخشى أن يستطيل بنوه وقرابته على الناس لصلتهم به، فكان إذا أمر أمراً، أو نهى عن أمرٍ أحضر بنيه وقال لهم: (لقد أمرتُ الناس اليوم بكذا، واللّهِ لا أوتي بمخالف منكم الاّ ضاعفتُ له العقاب).

ولقد قال لأبي موسى الأشعري عندما ولاّه القضاء (سَوِّ بين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك).

ويروى عنه : في معاملة الناس جميعاً بالمساواة القانونية : (أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت فوطئ ازارهُ شابٌ من فزارة، فلطمه الأمير فجَدع أنفه، فذهب الغزاري إلى عمر، وشكا الأمير إليه فقال عمر: له القصاص، أو يعفو عنك، فقال: كيف وأنا أمير وهو سُوقةٌ، فقال عمر: لقد سوى الإسلام بينكما، فلا تفضله إلاّ بالتقوى والعافية، فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي فلم يرض إلا بأن يلطم الأمير كما لطمه، وعلم أن عمر لا محالة سيمكن الأعرابي من القصاص، ففرّ إلى الروم وارتد عن الإسلام، وما أهم عمر ذلك، فانه خير للإسلام أن يخرج منه الوف لم يعمر الإيمان قلوبهم من أن يقر ظلما، أو يأخذ بالهوادة ظالماً، فالظلم ينفر أهل الحق، والعدل يقرّب ذوي القلوب الطاهرة التي تتجه إلى الحق تبتغيه. وهؤلاء مهما قلّ عددهم أوفر خيراً واعظم أثراً.

كبر الجريمة بكبر المجرم

إن الإسلام لم يسّو فقط في العقوبة بين القوي والضعيف، بل نظر نظرة أخرى لم يسبق إليها نظام، ولم يلحق به إلى الآن نظام،وذلك: انه بالنسبة للعقوبة قررّ أن الجريمة تكبر من المجرم الكبير، وتصغر من الصغير، ولقد وضح ذلك وضوحاً تاماً بالنسبة لعقوبة العبيد وعقوبة الأحرار، فانه جعل عقوبة العبد بالنسبة للعقوبات التي تقبل القسمة على النصف من عقوبة الحر، ولذا إذا زنى الحر جُلد مائة جلدة، وإذا زنى العبد جلد خمسين جلدة، وإذا شرب الحر خمراً جلد ثمانين جلدة، والعبد يجلد أربعين جلدة، وكذلك الأمة

عقوبتها على النصف من عقوبة الحرة، ولقد قال الله تعالى ﴿فإذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾(٢٦).

وان القانون الروماني كان على العكس من ذلك تماماً، فالزنى من العبد يوجب القتل، والزنى من عضو الشيوخ يوجب غرامة مالية، وإنّ نظرة صغيرة تبين أن حكم الرومان ظلم لا عدل فيه، وحكم الإسلام هو العدل الحقيقي،وذلك لأن الجريمة في ذاتها هوان نفسي، والعبد مهين بمقتضى ملكية رقبته، ومن يهن يسهل الهوان عليه، فمن هبطت نفسه تتجه نحو الإجرام. أما الكبير ذو الخطر والشأن فانه لا هوان عنده، فارتكابه الجريمة لا يكون إلاّ بانحدار شديد من مكانته إلى مستوى هبوط الجريمة فكانت الجريمة منه اكبر خطراً واعظم أثراً، وأوغل في الإيذاء النفسي والاجتماعي، فلا شك إن زنى ذي الشأن الكبير تحريض لمن دونه عليه، وزنى من لا شأن له لا يحرض أحداً. وهكذا كل الجرائم. ولذلك كبرت الجريمة في نظر الإسلام بكبر المجرم، وكبرت معها العقوبة بكبره أيضاً، وان ذلك سمو في التنظيم القانوني لم يَسمُ اليه إلى الآن قانون وإن اكثر القوانين وان كانت تتجه إلى المساواة القانونية التي لا تفاضل فيها، ترى التطبيق يتجه إلى تصغير جرائم الكبراء، وتكبير جرائم الضعاف ولا حول ولا قوة الاّ باللّه.

عناية الإسلام بالأسرة

نظم الإسلام المجتمع فاعترف بالأسرة التي تقوم على الزواج. قال تعالى ﴿فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فأن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾(٢٧).

وقال ﷺ (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغضُ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء)(٢٨).

---

(٢٦) سورة النساء:اية:٢٤.

(٢٧) سورة النساء : آية:٣.

(٢٨) البخاري: ٧: ٣ صحيح مسلم: ٤: ١٢٨ سنن النسائي:٤: ١٦٩-١٧١ و(٦: ٥٨) سنن ابي داود : ٢: ٢١٩ ، سنن ابن ماجه:١: ٥٩٢. الدارمي:٢ : ١٣٢ ، مسند احمد : ١: ٣٨٧،٤٢٤،٤٢٥.

ورغّب الرسول ﷺ في الزواج تطهيراً للمجتمع، وتكثيراً للامة التي تقع على عاتقها أعباء حمل الرسالة الإسلامية ونشر أنوارها بين أمم الأرض. فقال عليه الصلاة والسلام (تناكحوا تناسلوا، فأني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)[٢٩].

ولما كانت الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع الفاضل المتماسك، فقد اعتنى بها الإسلام بداية ونهاية، وخطبة وزواجاً، وأولاداً، وذلك حتى يكون أساس الحياة سليماً، فان البناء إنما يقوم على الأساس، فإذا لم يكن الأساس محكماً إنهار البناء وتهدم.

وإن انهيار المجتمعات الآن في غير الأمم الإسلامية ناتج عن تصدع الأسرة. فعلينا أن نتنبه إلى هذا قبل فوات الأوان، ويحضرني هنا قول يعزى إلى أبى الأسود الدؤلي أنه قال لأبنائه : (لقد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا، فقالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال لهم : لقد اخترت لكم من الأمهات من لا تكون سبة في جبينكم).

وفي هذا يقول المصطفى ﷺ (تخيروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاءَ وأنكحوا إليهم)[٣٠] فلذلك ينبغي على الرجل أن يكون اختياره للزوجة متجها إلى جانب تدينها وخُلقها، لا أن يكون جمالها فقط هو الدافع له لاختيارها شريكة للحياة.

وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام (تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولجمالها، ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[٣١].

وقال أيضاً (لا تتزوجّوا النساء لحسنهن فعسى حسنُهنّ أن يرديهنّ ولا تتزوجوهُنّ لأموالهنّ، فعسى أموالهن أن تطغيهنّ، ولكن تزوجوهنّ على الدين، ولأمة خرساء سوداء ذات دين افضل)[٣٢].

---

(٢٩) قال العجلوني في كشف الخفا : رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن ابي هلال مرسلاً. انظر: ١: ٣٨ وانظر سنن ابن ماجه (١: ٥٩٢) وانظر السنن الكبرى للبيهقي: (٧: ٧٠-٧١) بمعناه .

(٣٠) سنن ابن ماجه (١: ٦٣٣) ، السنن الكبرى للبيهقي (٧: ١٣٣) ، مستدرك الحاكم (٢: ١٦٣) وانظر كشف الخفا للعجلوني (١: ٣٥٨) قال حديث ضعيف .

(٣١) صحيح البخاري: (٧: ٩) صحيح مسلم: (٤: ١٧٥) سنن ابي داود :(٢: ٢١٩) سنن ابن ماجه (١: ٥٩٧)

(٣٢) سنن ابن ماجه (١: ٥٩٧) وانظر الترغيب والترهيب (٣: ٤٦) .

هذا أول مظاهر الاهتمام بأمر الزواج - الذي هو الأساس في تكوين الأسرة : أنه شرع الخطبة - وهي وعد متبادل بين رجل وامرأة بعقد قرانهما في المستقبل - وهي سُنَّة، فقد خطب المغيرة بن شعبة امرأة فقال له الرسول ﷺ (أنظرت إليها ؟ قال لا. قال: اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[٣٣].

والخطبة في الإسلام تكون في جو نظيف مفتح الأبواب والنوافذ بلا خلوة، وبحضور أحد المحارم، فان الخلوة بالأجنبية محرمة، ولا يؤمن من عواقبها.

وبعد أن يتم اختيار الزوجة -كما قلنا- على أساس الدين والخلق يتم الزواج، وتكريما للمرأة، وتطيبا لخاطرها، وإشعاراً بقدسية الزواج. شرع الله تعالى فيه (المهر) رمزاً للحب والتقدير، قال تعالى ﴿وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾[٣٤] وفي الوقت الذي شرع الإسلام المهر للزواج، دعا أيضا إلى عدم المغالاة في المهور فقد قال عليه الصلاة والسلام (إنّ من يمن المرأة تيسير أمرها وتيسير صداقها وتيسير رحمها)[٣٥].

وقال عليه الصلاة والسلام (اعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة، ويمن المرأة خفة مهرها، ويسر نكاحها، وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها، وعسر نكاحها، وسوء خلقها)[٣٦].

والإسلام الحنيف حين دعا الى عدم المغالاة في المهور كان يهدف الى تيسير الزواج، وبقاء النسل وتكثيره بطريق شرعي، مع خلو المجتمع من العناصر الفاسدة ومن الفساد نفسه، وما ذلك الاّ لأن الغلو في المهر يؤدي إلى قلة الزواج وعزوف الشباب عنه، وهذا يؤدي إلى انتشار الفساد بين الرجال والنساء، وبين الرجال أنفسهم وبين النساء أنفسهن.

---

(٣٣) سنن النسائي (٦: ٦٩-٧٠) وانظر: صحيح مسلم (٤: ١٤٢) وسنن ابي داود (٢: ٢٢٨) ومسند احمد: (٤: ٢٤٦) وسنن البيهقي:(٧ ٨٤).

(٣٤) سورة النساء : آية :٤ .

(٣١) مسند احمد : ٦: ٧٧ وانظر مجمع الزوائد:٤: ٢٨١.

(٣٦) مسند احمد : ٦: ١٤٥ ومستدرك الحاكم: ٢ : ١٧٢ وانظر مجمع الزوائد : ٤:٢٥٥ وانظر سيل الامطار (٦: ١٧٨).

وليس في القرآن ولا في سنة الرسول ﷺ ما يدل على تحديد المهور، فالأدلة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية تجوز دفع المهر الكثير أو القليل، ولكنه من المستحب عدم المغالاة في المهور.

وعلى كلّ : فالمطلوب من كل أب يحرص على سعادة ابنته، ويعلم إن السعادة ليست في كثرة المال، وإنما في بناء أسرة أساسها الوفاق والمحبة وحسن العشرة، والرجال لا يقدرون بالمال -أن لا يطلب الكثير في المهور، ويبتعد عن المغالاة فيها، وليكن لنا في رسول الله ﷺ إسوة حسنة فهو القائل (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه - ألاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[٣٧].

مشروعية الطلاق

فكما أن الإسلام شرع النكاح فقد شرع الطلاق والفراق أيضاً، ولكن الطلاق في الإسلام هو الحلال المبغوض، جاء في الخبر (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) [٣٨].

والأديان الأخرى لم يشرع فيها الطلاق فكانت التعاسة، وكان شيوع الخليلات، أما الإسلام فقد كان حكيماً، لأنه شرع اللّه فأباح الطلاق علاجاً للمشكلات، وأباح التعدد في الزواج، وجعل له دوافع وضوابط ودوافعه كثيرة منها : حب الإنجاب، ومرض الزوجة الأولى، وكبر السن، ولا بد من توفر شرط العدل في القسمة والمبيت والإنفاق وقد توعد الرسول ﷺ -الجائر في ذلك- بقولهِ (من كان له امرأتان، يميل مع إحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل- وفي لفظ (ساقط)). وجواز التعدد رخصة من عند العليم الحكيم، والأمم التي منعت التعدد مارس المجتمع فيها التعددّ تحت ستار الخليلات والعشيقات.

وقد فضل الإسلام أن تكون العلاقة جهراً، وثمار العلاقة هذه أولاد صُلب لهم حقوقهم الشرعية، لا أولاد سفاح يهيمون على وجوههم دون حقوق وبلا نسب معروف ينشأ الطفل معقداً حاقداً على المجتمع.

---

(٣٧) سنن الترمذي (٣: ٣٩٤) رقم [١٠٨٤،١٠٨٥] بالفاظ مقاربة وسنن ابن ماجه (١:٦٣٢) ومستدرك الحاكم (٢: ١٦٩) وسنن البيهقي (٧: ٨٢).

(٣٨) سنن ابي داود : ٢:٢٥٥ رقم (٢١٧٨) . سنن ابن ماجه : ١: ٦٥٠ رقم (٢٠١٨) .

والولي العاقل هو الذي يلاحظ التناسب والتكافؤ بين الزوج والزوجة في صفات تختلف باختلاف البيئات والأعراف، وفي مستوى التفكير والثقافة بين الجانبين، حتى تكون العلاقة ذلت وفاق ووئام، فتتماسك الأسرة وهذا يقود بالطبع إلى المجتمع المتماسك الصالح، وتلك هي الغاية.

وفي نهاية المطاف أقول : إنّ هذه النماذج والأمثلة التي ذكرتها فيما جاء في تعاليم إسلامنا الحنيف ما هي إلاّ غيض من فيض مما ورد في شريعتنا الغراء وإن هذه النماذج وغيرها الكثير التي لم تكن في استطاعة هذا البحث القصير أن يستوعبها لتعد أدلة كافية على إن الاستمساك بديننا الإسلامي الحنيف هو الضمانة الوحيدة لبناء المجتمع الصالح السعيد الذي يشعر فيه أبناؤه بالسعادة والطمأنينة والأمان والسلام.